**عامة المغرب الأقصي في العصر الموحدي، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس.**

عرض/ أحمد المحمودي

المغرب

يهتم موضوع هذه الأطروحة بدراسة أوضاع طبقة العامة في إحدى أبرز مناطق الغرب الإسلامي ويتعلق الأمر بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي كما يستهدف إضافة حلقة أخري لمشروع لا يزال يخطو أولي خطواته في مجال البحث الأكاديمي، وحسبنا أن التاريخ للعوام – باعتبار موقعهم في قاعدة الهرم الاجتماعي ومكانتهم في الاقتصاد والسياسة – كفيلاً بالإفصاح عن حلقة مركزية طالما تم إغفالها في التصورات المعاصرة لتاريخ الإسلام – وتسليط الضوء علي الميكانيزمات والأسس المتحكمة في المسار التاريخي العام، والوقوف علي أدق تفاصيل الحياة اليومية والثقافية والدينية، وتعرية مختلف مكونات ومفاصل البنيان التاريخي وفق تصور أكثر شمولاً واكتمالا قصد إنصاف هذه الطبقة المهملة في الأبحاث العلمية ووضعها في مكانتها التاريخية اللائقة، وبالتالي تجاوز متاهات ونقائص التنظير والشروع عملياً في إنجاز تاريخ للعوام واستيعاب شمولي لكل الاستفهامات والقضايا التي ترتبط بهم.

ومما يبرر اختياري لهذا الموضوع اقتناعي بضرورة الكشف عن ذلك الإقصاء والإبهام الذي شمل العديد من الأنشطة الحيوية لطبقة عامة ودورها التاريخي والحضاري علي عهد الدولة الموحدية التي امتد عمرها من (٥٤١ – ٦٦٨هـ) وهو ما يمكن أن يساهم في تفسير وفهم المسار التاريخي للمجتمع المغربي وتطوره أكثر مما تفسره الأحداث العسكرية والتحولات السياسية.

وقد اعتمد هذا الاختيار أيضاً – في الأساس – علي المركز الذي شغلته العامة في إطار البنية الاقتصادية حيث شكلت قوام القوي المنتجة من حرفيين وفلاحين ممن وقع علي كاهلهم عبء الإنتاج الاقتصادي، كما ارتكز – أيضاً – علي فعاليتها السياسية التي تنامت بشكل واسع في ظل سيادة الإقطاع وما ترتب عنه من آثار سلبية

بالنسـبة للطبقة الوسطي، مما أفسح المجال أمام العامة لتحل محلها في قيادة المعارضة السياسية، والمشاركة بقوة في صياغة الأحداث العامة خلال العصر الموحدي.

ورغم الأهمية العظيمة والبارزة لدور العامة، فإنها لم تنل من مؤرخي السلطة مـا يكشـف عـن هـذه الأهمـية وظلت خارج اهتماماتهم التي تمحورت حول حياة السـلاطين والأشـياخ واعتبروها المدخل الرئيسي لفهم حركة التاريخ في هذه الفترة، ومـن ثم تفننوا في صياغة عبارات القدح والتنقيص في حق العامة، فهم جماعات من الغوغائيـن والسـفلة والهمـج والـرعاع التي لم يكن بمقدورها القيام بأي دور علي الصـعيد التاريخـي والحضـاري، هـذا مع الأخذ بعين الاعتبار انعدام وجود كتابات تاريخـية تعـبر عن وجهة نظر العامة وتساعد في ذات الآن علي إثارة قضاياهم وما تفرزه من تساؤلات منهجية وموضوعية خاصة بهم في علاقاتهم مع السلطة والمجتمع معاً.

ومـن جانب أخر، وارتباطاً بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع نعتقد أننا اقتحمنا موضـوعاً جديـداً وحقلاً بكراً وقطاعاً منسياً ومغيباً، ومن ثم حرصنا علي بذل ما في المسـتطاع والجهد قصد الإلمام بمختلف الجوانب الخاصة بموضوع العامة، والاستناد إلـي كل ما من شأنه أن يساعدنا منهجياً وموضوعياً علي تسليط ما يكفي من الأضواء حـول الأدوار التي نسبت للعوام في العصر الموحدي، وكان لزاماً علينا أن نوسع آفاق البحـث والمسـاءلة لتشـمل مجمـل القضايا والاستفهامات التي يطرحها الموضوع، والوقـوف عند أدق التفاصيل وذلك بالركون إلي توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف المصـنفات الوسـيطة وذلك بإجراء قراءات واسعة في متوتها، والانفتاح علي المظان التـي ظلـت مهمشة، ولم شتات النصوص المبعثرة، والانتباه إلي قيمة المصادر غير المستعملة، ما يوفر المادة والأدوات الكفيلة باقتحام الموضوع، وهكذا فقد استفاد البحث مـن مضـامين كتب التراجم والطبقات والنوازل والأحكام الفقيهة، وما تزخر به كتب الفلاحـة والأطعمة والتصوف والمسالك والممالك والمعاجم الجغرافية والحكم والأمثال وكتب الحسبة.

واقتـــناعاً بأهمية توسيع مجال القراءة لتشمل مختلف أصناف التأليف لم نذخر جهـداً في استغلال فيض من المصنفات الأدبية بما في ذلك كتب الشعر والمستظرفات والحكايـات الرمـزية، والاسـتفادة مـن الرسـائل واستقراء محتويات بعض الكتب الموضوعة في الطب والأوزان والمكاييل وفهارس الكتب والتسفير.

وللوقـوف عن كثب علي تطور الاهتمامات في أوساط المختصين في التاريخ الاجتماعـي والمشـتغلين بـتاريخ الغـرب الإسلامي عموماً ومتابعة القضايا المثارة وتحصـيل النتائج وفحص المناهج، تشعبت القراءة فيما لا يسع ذكره في هذا المقام من كـتاب العـرب والمستشـرقين فـي مجالات الفلاحة والثقافة والنظم السياسية، وفي المواصـلات والأغذيـة واللغة والفنون وغير ذلك مما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد، ولم نغفل الاستفادة من حصيلة عدد من الأبحاث الاركيولوجية مع توسيع القراءة لتشـمل عـدداً مـن الدراسـات التي أنجزت عن المشرق الإسلامي وبعض الممالك المسـيحية والمـدن الإيطالـية بمـا يفيد المقارنة وتدقيق ما انتهينا إليه من خلاصات واستنتاجات.

واسـتفدنا أيضـاً من المنهج المقارن وذلك بتوسيع دائرة المقابلة لتشمل العدوة الأندلسـية وبـلاد المشرق فضلاً عن بلاد الفرنجة في محاولة لاستخلاص خصائص العصر المميزة.

وبفضـل ما تراكم من مادة تاريخية أمكن تناول الموضوع وفق نظرة شمولية تـتوخى الإحاطـة بمخـتلف الجوانب ورصد كافة التجليات وارتباطها بعضها ببعض مسـتهدفاً مـتابعة الظواهـر التاريخـية في نشأتها وتكوينها وتطورها مع وضعها في السياق ضمن المسار العام.

ووظفنا المادية التاريخية وأدواتها العلمية مدعمة بمنهجيات شتي مستوحاة من أحـدث ما كتب في مجال المناهج، ومن أوثق المصادر العربية في الهيكلة والتصنيف والوصـل بيـن البنيات والأنساق والمستويات، ولم نغفل الاستعانة بالمناهج الحديثة في علـم الاجـتماع اللغوي والسيميائيات من أجل ضبط المصطلحات والمفاهيم والإحاطة بمكامن التفاعل بين العامية والفصحي والأعجميات المتعايشة.

واســتناداً إلــي هــذا التناول المنهجي تمت دراسة الموضوع في ستة فصول بالإضــافة إلي مقدمة وخاتمة وتبت بالمصادر والمراجع والدراسات، وتتضمن المقدمة دراسة نقدية للمظان المعتمدة مع إبراز قيمة كل صنف في تغطية مباحث الأطروحة.

خصــص الفصل الأول لرصد البنية الاقتصادية للمجتمع المغربي ودورها في صــياغة الهــرم الاجتماعي علي أساس "طبقي" وذلك بتتبع مسار تطور أشكال ملكية الأرض وتحديــد نمط الإنتاج السائد، فضلاً عن إبراز القسمات العامة للنشاط الزراعي – الرعوي، والنشاط الصناعي والتجاري، واهتم الفصل الثاني بتحديد الشرائح المكونة لطــبقة العامــة والتفصيل في وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية تأسيساً علي أنه رغم تــنوع شــرائح هــذه الطــبقة إلا أنها تشترك جميعاً في ضآلة حيازتها للثروة، وعالج الفصــل الثالــث بعــض مظاهــر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة رابطاً بين المظاهر والأسباب.

وتعــرض الفصل الرابع لذهنيات العامة باعتبارها تجليات للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة.

وتصــدي الفصل الخامس لمعالجة العلاقة بين المتصوف والعامة إن تأييداً أو إن انحــيازاً للسلطة، كما عرض تأثير المتصوفة في كثير من معتقدات العامة وصياغة نظرتها للوجود.

أمــا الفصل السادس والأخير فتناول الدور السياسي لطبقة العامة فعالج شطره الأول العلاقــة المصــلحية بيــن العامــة والخلفاء وتضمن شطره الثاني تحليلاً لأبرز ثــورات العامــة ذات الــبعد الاجتماعــي في مطالبها وموقف السلطة الموحدية منها، ورصــدنا فــي الخاتمــة أهــم مــا أســفرت عنه هذه الدراسة المتواضعة من نتائج واستخلاصــات نــأمل صــادقين أن تصــلح لتعزيز رصيد الأبحاث الخاصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي في العصر الوسيط عامة وفي العصر الموحدي خاصة.

وتفاديــاً للإطــناب فــي عــرض نتائج هذا البحث الذي سيستفيد ولاشك من ملاحظــات الســادة الأســاتذة الأفاضــل أعضاء اللجنة الموقرة نود أن نشير إلي أن الأوضاع الاقتصادية المتردية ساعدت علي توضيح كثير من جوانب البنية الاجتماعية

حيـث كـان للـتطورات الاقتصـادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربـي فاحتلـت ذراه الطـبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهمية – الشـريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقـد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معايـنة طبـيعة واقعهـا المعيشـي ومظاهـر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلى عند العامة التى احتلت المرأة خلاله مكانة متمـيزة – عكـس نسـاء الخاصة– الأمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابـراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامـة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم • وعلى جانب أخر لم يغب العامـة عـن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلـوري" فقـد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجـتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغـة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشـعري، وعـلاوة علـي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أمـا عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصـائي الـذي يظهـر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصـوف علـي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

بالــرغم من محاولات المتصوفة لإصلاح وإنعاش أوضاع العامة المتأزمة إلا أنهم في الواقع لم يزيدوها إلا خمولاً وإحباطاً وهو ما عطل جزءا من قدراتهم الذهنية ووفر مزيدا من عناصر الانغلاق فاسحا المجال لتفشى الخرافات والشعوذة ٠

والظاهرة أن العامة وجدت في الخطاب الكرامى ما يناسب أوضاعها ويوافق تطلعاتها فهو إفراز لواقعها المعيشي ٠

وفى ما يتعلق بدور العامة على الساحة السياسية تقصى البحث صيغ وأشكال الــثورات التــي أقامــتها العامة وذلك بتحليل أبعادها الاجتماعية والفئات التي انضوت تحت لوائها ٠

والملاحــظ أنــه بالرغم من أن هذه الثروات أتاحت للعامة المشاركة بقوة في صياغة الأحداث السياسية في تلك الفترة، فإنها عجزت عن تحقيق أغراضها أو إحداث تغيــيرات جذريــة علي الصعيد السياسي والاجتماعي ويرجع ذلك بالأساس إلي انعدام التنظــيم وتخلــي الطــبقة الوسطي عن قيادة الحركة السياسية، فضلاً عن قمع السلطة المتواصل لنشاطات العامة.

وعلي جانب أخر يمكن الإشارة أن العامة بفضل هذه الثورات نجحت في لفت الأنظــار إلــي الواقع المأساوي الذي تعيشه وإجبار السلطات القائمة علي التخفيف من شطط استغلالها.

وتجــدر الإشارة إلي أن شح المادة التاريخية قد أفضي إلي عدم استيفاء بعض الموضــوعات حقهــا مــن الدراسة فظلت إشكالات مطروحة علي بساط البحث مثل: الإحصــاء العــددي للعامة، أشكال جباية الأرض العينية والنقدية في العصر الموحدي وعلاقــتها بمســتوي تطور البنية الاقتصادية، فضلاً تنظيمات الأصناف التي ما يزال تركيــبها الداخلي والعلاقة القائمة بين أصحاب العمل والأجراء من الأمور التي يكتنفها الغموض.

وفــي الــنهاية يمكــن الإشارة إلي أن المعطيات التي ساقها البحث عن مدار صــفحاته قــد أكــدت الدور الحيوي والهام الذي قامت به العامة علي صعيد الحضارة الإســلامية، الأمر الذي يحتم دمجها في نسيج تلك الحضارة بدلاً من نفيها خارج إطار تاريخها المسطور.